الأخبار
al-akhbar

رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين

نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب

مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه

مجلس التحرير: محمد زبيب
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري
شربل كريم

صادرة عن شركة اخبار بيروت

المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
تلفاكس: 01759500
01759597
ص. ب 113/5963

الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

التوزيع
شركة الاوائل
15ـ01 /666314 ـ
03 / 828381

الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

العقبة وتبوك والجوف وعرعر والخفجي... لنا!

علي حمية*

في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، وبالرغم من تحرّر بلاد المشرق من النير العثماني، أدّى فقدان السيادة القومية لهذه البلاد إلى سقوطها مجدّداً تحت الهيمنة الغربية (الفرنسية- البريطانية) بعد تجزئتها طبقاً لتفاهمات «سايكس – بيكو» (1916) التي أبرمت، سرّاً، بين القوى المتحاربة التي انتصرت مصالحها في الحرب الكبرى (1914-1918).

وإحياءً لمطامح قديمة لدول الجوار السوري، لا سيّما تركيا في الشمال الغربي والسعودية في الجنوب الشرقي، استولى الأتراك تدريجياً وبتزكية من الفرنسي، على مناطق واسعة وغنية من الأراضي السورية الشمالية تُقدّر بحوالى 250,000 ألف كلم2 ويعيش فيها قرابة الـ25 مليون سوري. وقد بارك الفرنسيون المنتدبون على سورية هذه الغنيمة الثمينة التي فاز بها الأتراك مع أنهم خسروا، كدولة منتدبة، جزءاً لا يُستهان به من «حصّتهم» في بلاد المشرق التي كانوا قد تقاسموها مع الإنكليز.

الأمر نفسه حدث للمنطقة نفسها مع السعوديين في ما كان يُعرف يومها بـ«مملكة نجد والحجاز» التي أنشأها عبد العزيز آل السعود بعد أن انتزعها، بالمكر والغدر من حكامها السابقين: آل الرشيد في نجد والهاشميين في الحجاز، والذي حوّلها، لاحقاً، إلى مملكة تحمل اسم عائلته (السعودية).

لقد استولى ابن السعود (عبد العزيز) وأنصاره من أتباع المذهب الوهابي على ثلثي بادية الشام في مطالع الثلاثينيات من القرن الماضي، في وقت كانت فيه سورية تغطّ في سبات عميق، فاقدة لأبسط مقومات الاستقلال الحقيقي والسيادة الفعلية مفتقرة إلى سلطة حقيقية، منبثقة من الشعب، تدافع عن حقوقها ومصالحها القومية. وصلت قوات ابن سعود إلى العقبة والأردن وبادية الشام وهدّدت المنطقة الجنوبية الشرقية من العراق (الكويت، النجف وكربلاء). ولولا الضغط البريطاني لتأمين صنيعته الفتية إمارة شرق الأردن من جهة، ومساندة الحكم الهاشمي التابع للإنكليز في العراق من جهة ثانية، لكانت المنطقة بأسرها، اليوم، تابعة للمملكة التي يتحكم آل السعود بمصيرها.

ولكن، على الرغم من التدخل البريطاني لحماية حلفائه الهاشميين في عمان وبغداد، تمسكت السعودية بأغلب المناطق التي سيطرت عليها، لا سيّما في الغرب والشمال الغربي في بادية الشام، وخليج العقبة، والشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، والشاطئ الغربي للخليج العربي. ومن أهم المناطق السورية التي استولت عليها المملكة العربية الناشئة حديثاً في الثلاثينيات من القرن الماضي، نذكر بعضها مبتدئين من الغرب إلى الشرق:

(1) ساحل خليج العقبة (الشرقي) حيث يبلغ طوله الإجمالي من وادي عربة شمالاً إلى مضيق تيران وجزيرة صنافير، عند بوابة البحر الأحمر، جنوباً حوالى 160 كلم والتي تسيطر السعودية على ثلاثة أرباعه، أي على حوالى 120 كلم. ويتبع هذا الساحل، بحسب التقسيمات الإدارية السعودية، إلى منطقة تبوك التي تربط بين العقبة والبحر الأحمر ومنطقة الجوف السورية المحتلة، أيضاً، كما سنرى لاحقاً. واستمرّ النزاع بين الأردن والسعودية على هذه المناطق، لا سيّما العقبة، إلى الستينيات من القرن الماضي، وقد حُلّ، طبعاً، على حساب المصالح القومية في الأردن.

أما المدن والقرى التابعة جغرافياً للعقبة والملحقة عنوة بالسعودية فأهمها: حقل، وهي أكبر المدن على الخليج بعد العقبة وتبعد عن مدينة تبوك السورية المحتلة مسافة 200 كلم إلى الشمال. رأس الشيخ حميد، وهو رأس داخلي ممتد في داخل البحر الأحمر وعنده يبدأ خليج العقبة. مقنا وهي ميناء بحري على العقبة. البدع وهي مدينة داخلية تقع إلى الشرق من ساحل العقبة وتبعد عنه مسافة 30 كلم وقرابة الـ45 كلم عن البحر الأحمر، وجزيرتا تيران وصنافير الرابضتين عند نقطة التقاء خليج العقبة بالبحر الأحمر والتي تحتلهما «إسرائيل» منذ حرب 1967.

(2) منطقة تبوك وتضم إلى مدينة تبوك عدة مدناً أخرى أهمها قيال وشرماء على البحر الأحمر، وتقع تبوك في القسم الجنوبي الشرقي لبلاد الشام وهي جزء منها، وكانت تتبع، قبل سلخها، لواء الكرك في شرقي الأردن الذي يضمّ بالإضافة إليها كل من الطفيلة ومعان والشوبك والعقبة، وقد تمثّلت تبوك بممثلين اثنين في «المؤتمر السوري العام» الذي انعقد في دمشق، على مدى عام كامل من حزيران 1919 إلى تموز 1920، الأمر الذي يُثبت هويّتها السورية بوصفها إحدى مناطق شرق الأردن (موفق محادين، مجلة اتجاه، العدد 22، 2011).

> القول إننا عرب وأن تاريخنا واحد هو كلام عاطفي خالٍ من الصفة العلمية

(3) منطقة الجوف وعاصمتها سكاكا وأهم مدنها: دومة الجندل، وطبرجل، ويخترقها من الغرب إلى الشرق وادي السرحان. والجوف التي تبلغ مساحتها 139,000 كلم2 وسكانها 360,000 ألف نسمة هي، بكاملها، منطقة سورية، وهي موغلة في القدم وغنية بالنقوش النبطية والإغريقية والإسلامية. وقد أعطاها موقعها الجغرافي مكانة مهمة منذ العصور القديمة، فهي أحد طرق التجارة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام، كما أنها طريق الحج البري إلى الأماكن المقدّسة في الحجاز، وفيها منفذ الحديثة البري وهو أكبر منفذ حدودي في الشرق الأوسط. ويحدّ الجوف من الشرق صحراء النفوذ حيث يتوقف عندها وادي سرحان.

(4) منطقة عرعر ويُسمّيها النظام السعودي بـ«منطقة الحدود الشمالية» وتضم إلى العاصمة عرعر منطقتين إداريتين هما: طريف، ورفحاء. سمُّيت المدينة بهذا الاسم نسبة إلى وادي عرعر الذي تقع فيه، ويُقال أيضاً لكثرة شجر العرعر فيها قديماً. تقع عند المتطرف الشمالي لبادية الشام وتفصلها مسافة 65 كلم عن العراق وتُعدّ بوابة مرور كبيرة إلى العراق والشام وتركية فأوروبة من جهة الجزيرة العربية، واكتسبت أهميتها من خط أنابيب الزيت (التابلاين) الذي يمرّ فيها والذي أنشئ عام 1950 حيث تحوّلت إلى محطة سكن للعمال القادمين من منطقة نجد وبعض الدول المجاورة. تبلغ مساحة هذه المنطقة 127,000 كلم2 وهي، في معظمها، أراض سورية، أما سكانها فيبلغون 300,000 ألف نسمة. ومن مدنها المعروفة، بالإضافة إلى مدينة عرعر: طريف التي أنشأتها شركة الزيت المعروفة باسم «آرامكو»، رفحاء، وجديدة عرعر منفذ الحدود بين الجزيرة العربية والعراق.

. طريف تقع بالقرب من حدود السعودية مع الأردن، وتتميّز بموقعها على الطريق الدولي الرابط بين دول الخليج العربي وبلاد الشام. وقد أنشئت لغرض محدّد: ترسيم حدود السعودية مع الأردن والمحافظة عليها. وتمّ لهذا الغرض توطين البدو فيها بالرغم من عدم توفر المياه، وقد لعب خطّ نقل البترول (التابلاين) في مطالع الستينيات من القرن الماضي دوراً مهماً في عملية التوطين هذه.

. رفحاء هي ثاني أكبر مدينة بعد عرعر في شمال شرق بادية الشام، وتقع على طريق الحج القديم الذي كان يُعرف بـ«طريق زبيدة» زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد والذي كان يربط بغداد بمكة، كما تقع، حالياً، على الطريق الدولي الرابط بين دول بلاد الشام ودول الخليج وأوروبا، وقد أنشئت بعد إنشاء شركة التابلاين عام 1951 واكتسبت أهميتها من مرور أنابيب النفط فيها، ومن المنفذ البري الحيوي الذي شكلته.

(5) منطقة الخفجي، وتقع على الخليج العربي، جنوب شرق الكويت، وتتبع إدارياً ما يُسمّى بـ«المنطقة الشرقية» في السعودية. سكانها تجمع من جنسيات مختلفة دفعتهم الحاجة إلى العمل فيها، بعد اكتشاف النفط عام 1958.

(6) بادية الشام أو الصحراء السورية، كما أطلق عليها الرحّالة الأجانب، تمييزاً لها عن الصحراء العربية التي هي إلى الجنوب الشرقي منها، هي وصحراء النفوذ العربية « صحراءان» متداخلتان الواحدة بالأخرى إلى حدّ اعتبر فيه بعضهم أن هذا التداخل بينهما يُبشر بإمكانية قيام أمبراطورية عربية كبرى تضمّ سورية والجزيرة العربية معاً.

كثر التنازع بين السلوقيين، حكام سورية، والبطالسة، حكام مصر، عام 268 ق. م. على هذه المنطقة التي تحتضن، في جغرافيتها، معظم المناطق والأودية والمدن والأرياف التي سبق ذكرها والتي تتبع، حالياً السعودية، وتشكل نقطة الالتقاء، من جهة الشرق، بين الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية. تقع جنوب شرق الشام وتضم إلى هذه المنطقة كلاً من شرق الأردن وغرب العراق حتى نهر الفرات الذي يشكل حدودها الشرقية، ويؤلف وادي السرحان، بكامل رقعته الجغرافية، بما فيها الجزء المحتل من قبل السعودية، جزءاً لا يتجزأ من بادية الشام التي تغطي مساحة 550,000 كلم2 من جغرافية بلاد الشام المنقوصة المساحة، حالياً، بسبب استيلاء آل السعود على ما مجموعه 250,000 ألف كلم2 من جغرافيتها الطبيعية الكاملة، وهذه المساحة المنقوصة هي عبارة عن مساحة تقترب من مساحة ثلاث مناطق إدارية في السعودية هي، كما سبقت الإشارة: نصف منطقة تبوك، كامل منطقة الجوف بما فيها كامل وادي السرحان، معظم منطقة عرعر، بالإضافة إلى منطقة الخفجي وجزء من منطقة حفر الباطن التي تحدّ الأراضي العراقية. ويجتاز البادية السورية، من جهتها الشرقية، خط أنابيب شركة أرامكو الذي كان يوصل النفط من رأس تنورة، على الخليج العربي، إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

حصون على تخوم المناطق الحضرية

ويتبين لنا من استعراضنا لمحطات العبور (الترانزيت) التي أقامها ابن السعود بين مملكته وبلاد الشام والدساكر التي زرعها على امتداد خطوط أنابيب النفط التي مدّتها الشركات الأجنبية المستثمرة بغرض الحماية والصيانة وإيواء العمال والموظفين (؟) أن هذه المواقع التي ارتبط وجودها، تاريخياً، بالنفط هي، فعلياً، مراكز أمامية متقدّمة داخل بادية الشام، وتعني، من الناحية الاستراتيجية، أنها أصبحت جزءاً من المجال العربي (السعودي) الجغرافي الحيوي بعد أن خسرته سورية بسبب طلاقة تخومها من جهة الصحراء العربية من جهة، وتهاونها في الزود عنها من جهة ثانية. فبعض الأمم، كبولونيا واليونان وهولندا وبلجيكا وإلى درجة أقل سورية - يقول الخبراء- جنت عليها قلة حدودها أو رخاوتها وطلاقتها كثيراً، فالصحراء، بالنسبة للبيئة الحضرية، حدّ يقف عنده عمرانها وتمدنها وثقافتها. ولكن الصحراء لم تكن (في مثل سورية) حدّاً للقبائل المتاخمة لحدودها، المتحينة الفرص للانقضاض عليها، كالقبائل العربية التي قادها شريف مكة إلى سورية في ما عُرف بـ«الثورة العربية الكبرى» في الحرب العالمية الأولى ثم قادها، بعد خسارة ملكه في الحجاز، خصمه العنيد ابن السعود، وذلك للاستيلاء على أرض آمن من الصحراء وأضمن للعيش منها، والاستقرار فيها، وإنشاء إمبراطورية عربية بعد ضمّ سورية إليها.

إن القبائل العربية التي كانت تُغير في أزمان سابقة على بادية الشام كانت تواجهها الدول القائمة آنذاك، كالآكاديين والآشوريين والبابليين، فتطاردهم إلى الصحراء وتنشئ الحصون والمخافر ونقاط المراقبة على تخومها. ولقد أمدّنا التاريخ بشواهد كثيرة، منها رسم لفصيلة من الجيش الآشوري بلباسها الرسمي وسلاحها على صهوات أحصنة مسروجة تطارد مجموعة من «اللصوص العرب»، كما ورد في النص، وهم هاربين عراة على ظهور جمالهم. الأمر نفسه تكرّر في القرنين السابقين للمسيحية (مع الأنباط) والقرون الثلاثة التي تلت (مع الرومان والتدمريين والغساسنة) حيث أقام هؤلاء مراكز محصّنة على امتداد حافة البادية السورية لا ليحولوا بينها وبين البدو إذ كانوا يعتمدون على الخدمات

استولى ابن السعود وأنصاره على ثلثي بادية الشام في مطالع الثلاثينيات من القرن الماضي (أ ف ب)